تنزيه النبيين
عن كونهم كانوا غير مؤتمنين
دراسة تفسيرية للآيات (٥٢- ٥٤)
(من سورة الحج)

إعداد الدكتور

ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن

بقسم الدراسات الإسلامية، بكلية التربية والآداب

بجامعة تبوك بالمملكة العربية السعودية

ralghmy@ut.edu.sa

ملخص البحث

يتناول هذا البحث: (تنزيه النبيين عن كونهم كانوا غير مؤتمنين، دراسة تفسيرية للآيات (٥٢- ٥٤) من سورة الحج) دراسة هذه الآيات دراسة تفسيرية، للمساهمة في الدفاع عن القرآن الكريم، وتنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبيان التفسير الحق، حتى لا يغتر أحد بما ذكر في كتب التفسير مما يقدح في عصمة الأنبياء والمرسلين.

ويقوم هذا البحث على منهجين هما: التحليلي النقدي والاستنباطي، وقد تبين من خلاله تنزيه النبيين عن كونهم كانوا غير مؤتمنين، وأنه لم يصح شيء مما روي في شأن الأنبياء والمرسلين في تفسير هذه الآيات مما يتعارض مع عصمتهم؛ فلم يكن الأنبياء والمرسلون أبدا غير مؤتمنين على تبليغ شرع الله، وما روي في هذا الشأن فإنما هو ضعيف الإسناد، ويتعارض مع القرآن والسنة.

الكلمات المفتاحية: تنزيه النبيين - غير مؤتمنين - دراسة تفسيرية.

❊ ❊ ❊

Abstract:

This research deals with: (The exaltation of the prophets for being untrustworthy, an explanatory study of verses (52-54) of Surat Al-Hajj) The study of these verses is an explanatory study, to contribute to the defense of the Holy Qur'an, and the exaltation of the prophets, may blessings and peace be upon them, and the statement of the true interpretation, so that no Someone is deceived by what is mentioned in the books of interpretation, which defames the infallibility of the prophets and messengers.

This research is based on two approaches: analytical-critical and deductive. Through it, it was clear that the prophets were disavowed of being untrustworthy, and that nothing was true of what was narrated regarding the prophets and messengers in interpreting these verses, which contradicts their infallibility. The prophets and messengers were never untrustworthy to communicate the law of God, and what was narrated in this regard is weak attribution, and contradicts the Qur'an and Sunnah.

Keywords: honesty of the prophets - not trustworthy - an interpretive study.

* * *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإن القرآن الكريم زاخر بالحديث عن الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام-، وحديثه عنهم حديث الإيمان في ذروة سنامه، والجهاد في أجل معانيه، والصبر في أسمى مراقيه، كيف لا وهم حملة وحي الله تعالى لهداية الناس، اختارهم الله عز وجل على عينه، واصطفاهم من سائر خلقه، وجعلهم أمناء على وحيه وشرعه؛ فهم -عليهم السلام- أكمل البشر إيمانا، وأعلاهم خَلْقًا وخُلُقًا، مع أنهم بشر كسائر البشر، وأناس كسائر الناس، لكنهم بشر بلغوا الكمال، وفاقوا أقوامهم في كل شيء، بل فاقوا جميعا جميع البشر، كما دل على ذلك القرآن الكريم، ونطقت به نصوصه.

هذا، ومما يؤسف له أن كثيرا من المفسرين ذكروا في تفاسيرهم روايات تقدح في عصمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وتتناقض مع نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة؛ فندها بعضهم في مواضعها، وذكرها بعضهم دون تفنيد أو رد، تاركين القارئ في حيرة من أمره، وهذا ما

حدا ببعض من لا حَظَّ لهم من العلم أن يثقوا في تلك الروايات وما قام عليها من تفسير؛ ثقة فيمن نسبت إليهم من السلف، ومن ذكرها من أعلام المفسرين، وجهلا بما تحمله من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام.

ولا ريب أن أكثر المسلمين لا يستطيعون الوصل إلى تحقيق تلك المسائل في بطون التفاسير؛ ليعرفوا الحق من الباطل؛ ومن هنا كان لزاما على المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن أن يبذلوا وسعهم في جمع شتات هذه المسائل، وتحقيقها من مظانها، وبيان التفسير الصحيح، وتقديمه للناس.

وقد هداني الله تعالى لدراسة الآيات (من ٥٢ إلى ٥٤) من سورة (الحج)، والتي ذكر المفسرون فيها روايات تقدح في عصمة الأنبياء قدحا صريحا، إذ توحي ألفاظها أنهم عليهم السلام لم يكونوا مؤتمنين على حفظ الوحي وتبليغه. وجعلت البحث بعنوان: **((تنزيه النبيين عن كونهم كانوا غير مؤتمنين دراسة تفسيرية للآيات (٥٢- ٥٤) من سورة الحج)**.

حدود البحث:

يقتصر هذا البحث بالدراسة التفسيرية على الآيات (من ٥٢ إلى ٥٤)، من سورة (الحج)، لبيان التفسير الصحيح، وتنزيه النبيين عليهم السلام - وعلى رأسهم نبينا ﷺ-، عن شبهة عدم الأمانة في تبليغ وحي الله تعالى.

أهمية البحث:

تتمثل أهمية هذا البحث فيما يأتي:

١- أن بيان التفسير الصحيح وتنزيه النبيين عما نسب إليهم مما لا يصح نسبته إليهم من أجل الأعمال خدمة لتفسير القرآن الكريم، ودفاعا عن أطهر وأنقى خلق الله تعالى.

٢- حاجة المسلمين إلى تحقيق هذه القضايا التفسيرية، ومعرفة الحق فيها؛ خاصة أن المفسرين مختلفون فيها.

٣- أن الأقوال الصحيحة في هذه القضايا مبثوثة في كتب التفسير، ولا يستطيع تحقيقها والوصول إليها إلا المتخصصون، ليسهل على جمهور المسلمين الاطلاع عليها ومعرفة الحق من الباطل فيها.

أهداف البحث:

تكمن أهداف هذا البحث فيما يأتي:

١- تفنيد الروايات الموهمة الواردة في شأن الأنبياء -عليهم السلام- في تفسير الآيات (٥٢-٥٤) من سورة الحج.

٢- بيان التفسير الصحيح للآيات (٥٢- ٥٤) من سورة الحج.

٣- المساهمة في الدفاع عن كتاب الله الكريم، وعن أنبيائه عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الدراسات السابقة:

بدهي أن المفسرين قديما وحديثا تكلموا في تفسير هذه الآيات، وعرضوا لهذه القضية، لكن كلامهم فيها بين إيجاز وإطناب، ويحتاج إلى تحقيق وتفنيد. ولم أعثر - بعد بحث دقيق- على دراسة علمية حديثة تناولت قضية البحث الحالي بهذا المنهج، وإنما وجدت دراسات أخرى تناولت الحديث عن تنزيه الأنبياء بصورة مجملة.

؛ ومنها:

١- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة للشيخ عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني. ولم يتعرض لقضية البحث إلا بصورة مجملة جدا.

٢- عصمة الأنبياء في الكتاب والسنة والرد على الشبهات الواردة عليها، دكتوراه ، للدكتور/ محمد الخضر الناجي ضيف الله، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٧٦م، ولم يتعرض لقضية البحث إلا بإيجاز شديد.

٣- آراء خاطئة وروايات باطلة في سير الانبياء والمرسلين، للشيخ عبد العزيز السدحان. وتعرض لقضية البحث بإيجاز شديد، في صفحة ونصف.

٤- أعلام المسلمين بعصمة النبيين للشيخ إسحاق عزوز المكي. ولم يتعرض لقضية البحث إلا بإيجاز شديد، في نصف صفحة.

منهج البحث:

سرت في هذا البحث على منهجين، هما: المنهج التحليلي النقدي، والمنهج الاستنباطي، حيث حللت الآيات الكريمة موضوع البحث، وفندت ما ورد في تفسيرها من روايات، مستعينا بما أنتجته قرائح علمائنا الأجلاء رحمهم الله تعالى، بما يفي بالغرض الذي سيق لأجله البحث. وحاولت قدر الإمكان استنباط ما تيسر من المعاني الصحيحة التي يجوز حمل النص القرآني الكريم عليها، وتليق بالمقرر في عصمة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة وأتم التسليم .

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يخرج في مطلبين، وخاتمة.

المطلب الأول: عصمة الأنبياء عليهم السلام، ومذاهب العلماء فيها.

المطلب الثاني: تنزيه النبيين عن كونهم غير مؤتمنين.

ثم الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث وتوصياته، ثم فهرس المصادر والمراجع.

والله تعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن تقصيري وزللي، وحسبي أنني اجتهدت معتمدا على الله تعالى، ومستفيدا مما أنتجته قرائح علمائنا الأجلاء؛ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ [هود: ٨٨]، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المطلب الأول: عصمة الأنبياء عليهم السلام، ومذهب أهل السنة فيها.

لما كانت الروايات المذكورة في تفسير الآيات (٥٢- ٥٤) من سورة الحج تتعارض مع عصمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام كان لزاما أن تُذكر نبذة عن عصمة الأنبياء -عليهم السلام-، ومذهب أهل السنة فيها؛ ليكون الأمر واضحا جليا عند مناقشة الروايات الواردة في تفسير هذه الآيات.

أولا: تعريف العصمة:

(أ) أما في اللغة: فالعصمة: الحفظ. يقال: عَصَمْتُهُ فانْعَصَمَ. واعْتَصَمْتُ بالله، إذا امتنعتَ بلُطْفه من المعصية[١]، والعِصْمة: المَنْعُ. وعِصْمةُ اللَّهِ عَبْدَه: أَنْ يَعْصِمَه مِمَّا يُوبِقُه. يقال: عَصَمه يَعْصِمُه عَصْماً: منَعَه ووَقَاه، قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [سورة هود: ٤٣] أي: أَيْ يمنعُني مِنَ الْمَاءِ، وَالْمَعْنَى مِنْ تَغْرِيقِ الْمَاءِ. واعْتَصَمَ فلانٌ بِاللَّهِ إِذَا امْتَنَعَ بِهِ. والعِصْمة: الحِفْظُ. يُقَالُ: عَصَمْتُه فانْعَصَمَ[٢].

والاعْتِصَامُ: الاستمساك؛ قال تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا شيء يَعْصِمُ منه، والاعتصام: التمسك؛ وقال

(١) الصحاح للجوهري: ١٤٦٥/٢ مادة (عصم) .
(٢) لسان العرب: ١٢/ ٤٠٣، ٤٠٤، مادة (عصم)

تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣](١).

وهكذا تدور العصمة في كلام العرب حول المنع والحفظ والوقاية.

(٢) وأما في الاصطلاح: فقد عرفها أهل السنة بتعريفات كثيرة:

قال الراغب: «عِصْمَةُ الأنبياءِ: حِفْظُهُ إيّاهم أوّلا بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميّة، ثمّ بالنّصرة وبتثبّت أقدامهم، ثمّ بإنزال السّكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتّوفيق ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]» أهـ(٢).

وقال ابن حجر: «عصمة اللّه الأنبياء -على نبينا وعليهم الصلاة والسلام- حفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية، والنصرة والثبات في الأمور، وإنزال السكينة عليهم»(٣).

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] قال: «أي: امتنع، وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية»(٤).

ولعل أصح تعريف للعصمة أنها: «حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة»(٥).

لأن هذا التعريف يبين أن الرسل والأنبياء وإن شاركوا بني آدم في بشريتهم في جواز الخطأ عليهم ووقوع المعصية منهم إلا أن الله تعالى لا يقرهم على خطأ، ويحفظهم ظاهراً وباطناً من ارتكاب المعاصي، ويباعد بينهم وبين نوازع الشر ونوازع السوء.

ثانيا: مذاهب العلماء في عصمة الأنبياء:

قال الإمام الرازي: «اختلف الناس في عصمة الأنبياء -عليهم السلام-، وضبط القول فيه أن يقال: الاختلاف في هذا الباب يرجع إلى أقسام أربعة: أحدها: ما يقع في باب الاعتقاد، وثانيها: ما يقع في باب التبليغ، وثالثها: ما يقع في باب الأحكام والفتيا، ورابعها: ما يقع في أفعالهم وسيرتهم»(٦).

- أما القسم الأول: وهو اعتقادهم الكفر: فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل البعثة

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص٣٣٦، ٣٣٧ .
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص٣٣٦، ٣٣٧ .
(٣) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ٥٠٢ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٨٩/٩، ١٩٠ .
(٥) شرح الجوهرة للشيخ: عبد السلام اللقاني: ص١٠٩ .
(٦) التفسير الكبير للرازي: ٣/ ٤٥٥.

وبعدها عمداً وسهواً[١].[٢]

- وأما القسم الثاني: وهو ما يتعلق بتبليغ الرسالة: فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بتبليغ رسالات الله تعالى، عمداً وسهواً، وإلا لارتفع الوثوق بالأداء، ويفوت بذلك الغرض المقصود بالبعثة[٣].

- وأما القسم الثالث: وهو ما يتعلق بالفتيا: فأجمعوا على كونهم معصومين من الخطأ فيه على سبيل التعمد، وأما على سبيل السهو فجوزه بعضهم، وأباه آخرون[٤].

- وأما القسم الرابع: وهو الذي يقع في أفعالهم:

أما قبل النبوة: فالصحيح أنهم منزهون عن كل عيب، معصومون من كل ما يوجب الريب[٥].

وأما بعد النبوة: - فلا خلاف في عصمتهم من الكبائر، وقد نقل الإجماع على ذلك: القاضي عياض القاضي أبو بكر الباقلاني، والحافظ ابن حجر، والشوكاني، وابن الحاجب وغيره من متأخري الأصوليين[٦].

- وأما الصغائر: فقد حقق القرطبي المسألة، وبين أنهم -عليهم السلام- معصومون من الصغائر التي فيها شين ونقص؛ وأنها واقعة منهم على جهة الخطأ والنسيان أو الاجتهاد والتأويل، لا على سبيل التعمد[٧].

قال القرطبي: «وقال بعض المتأخرين: الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل جملتُها التأويلَ، وإن قَبِلَ ذلك آحادُها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو جهة التأويل الذي دعا إلى ذلك؛ فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات، بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض: (٢/ ١٥٠- ١٥٢)، والتفسير الكبير للرازي: (٣/ ٤٥٥).
(٢) الشفا للقاضي عياض: (٢/ ١٥٠، ١٥١).
(٣) الشفا للقاضي عياض: (٢/ ١٦٩-١٧١، ١٨٧) والتفسير الكبير للرازي: (٣/ ٤٥٥)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٠/ ٢٨٩) ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية (١/ ٤٧٠)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٠/ ٢٨٩)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/٣٠٧)
(٤) التفسير الكبير للرازي: (٣/ ٤٥٥).
(٥) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٣٣٥).
(٦) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٣٩١)، وفتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٩)، إرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٩٨).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٠٨).

بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)[١]؛ فهم- صلوات الله وسلامه عليهم- وإن كانت النصوص قد شهدت بوقوع ذنوب منهم؛ فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم، ولا قَدَحَ في رتبهم، بل قد اجتباهم الله وهداهم، ومدحهم وزكاهم، واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه»[٢].

ويجب التنبه إلى أمر في غاية الأهمية، وهو:

أن القائلين بوقوع الصغائر من الأنبياء مجمعون على أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- معصومون من الإقرار على الذنوب؛ قال ابن تيمية: «الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وليست التوبة نقصا، بل هي من أفضل الكمالات، وهي واجبة على جميع الخلق»[٣].

وقال أيضا: «والأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب، حتى لا يُتأسى بهم فيها إذا أُقروا عليها؛ لأن الإقرار عليها يقتضي أنها ليست ذنوبا»[٤].

المطلب الثاني: تنزيه النبيين عن كونهم غير مؤتمنين

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [سورة الحج: ٥٢ - ٥٤] .

أولا: الروايات الواردة في هذه الآيات:

ذكر بعض المفسرين[٥] في تفسير هذه الآيات الكريمات ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوبا إلى النبي ﷺ، وهو ما اشتهر

(١) الرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٥٣)، وإحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٢٧)، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (ص: ٦١٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٠٩)، ويراجع: إرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٩٨- ١٠٢).
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٥١).
(٤) الاستقامة لابن تيمية (١/ ٤٠١) بتصرف يسير.
(٥) يراجع: جامع البيان للطبري: ١٨/ ٦٦٢- ٦٦٩، والكشف والبيان للثعلبي: ٧/ ٢٩، ٣٠، والنكت والعيون للماوردي: ٤/ ٣٥، ٣٦، والتفسير البسيط للواحدي: ١٥/ ٤٥٢- ٤٦٩، ومعالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٣٤٧، ٣٤٨، والكشاف للزمخشري: ٣/ ١٦٤، ١٦٥.

بـ «قصة الغرانيق[١]»، وفيها ما يوهم عدم عصمة جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام في حفظ الوحي وتبليغه؛ إذ لفظها عام في كل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وملخص ما روي فيها:

أنه ﷺ لما شق عليه إعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم، فكان ذات يوم جالساً في ناد من أنديتهم وقد نزلت عليه سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [سورة النجم: ١] فأخذ يقرأها عليهم حتى بلغ قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [سورة النجم: ١٩، ٢٠] وكان ذلك التمني في نفسه، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه: (تلك الغرانيق العلي، وإن شفاعتهم لترتجي). فلما سمعت قريش ذلك فرحوا، ومضى رسول الله ﷺ في قراءته حتى ختم السورة، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين، فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، فأتاه جبريل فقال: ما صنعت؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفاً شديداً، فأنزل الله هذه الآية. أ هـ.

وقد أخرج هذه القصة بألفاظ متعددة: الطبراني، والبزار، والبيهقي، والطبري، وابن أبي حاتم[٢] وابن مردويه وابن المنذر[٣]. وحكم بصحتها ابن حجر، والسيوطي، ومن تابعهما[٤].

وتفيد هذه القصة -رغم أن لفظ الآية خبر عام عن سائر الرسل والنبيين-: أن الشيطان عليه اللعنة قد تسلط على نبينا محمد ﷺ، وألقى عليه ألفاظا زادها على القرآن؛ ليجامل بها قريشا في عبادتهم للأصنام، وأنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك وتلا على الناس ما لم يوح إليه، وأنه حزن لذلك وخاف خوفاً شديداً!!!.

وهذا يقدح قدحا صريحا في عصمته ﷺ، ويصمه -وسائر النبيين- بخيانة الأمانة في تبليغ وحي الله تعالى!!!؛ ذاك أن الشيطان يتدخل ويلقي في أمنية الرسول أو النبي ويغير الوحي النازل عليه!! وهذا مما يرفع الثقة بالرسل والأنبياء

(١) المراد بالغرانيق: الأصنام، (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (٣/ ٣٦٤).

(٢) يراجع: المعجم الكبير للطبراني: ٩/ ٣٤ رقم (٨٣١٩)، و ١٢/ ٥٣ رقم (١٢٤٥٠)، ومسند البزار: ١١/ ٢٩٦ رقم (٥٠٩٦)، ودلائل النبوة للبيهقي: جماع أبواب المبعث، باب: الهجرة الأولى إلى الحبشة ثم الثانية وما ظهر فيها من الآيات: ٢/ ٢٨٦، ٢٨٧، وجامع البيان للطبري: ١٣١/١٧- ١٣٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٨/ ٢٥٠٠- ٢٥٠٣.

(٣) يراجع: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٦٥/٦، ٦٩ .

(٤) يراجع: فتح الباري لابن حجر: ٨/ ٤٣٩، والدر المنثور للسيوطي: ٦٥/٦، ٦٩.

جميعا، ويدفع الأمان عن الشرع!!.

ثانيا: تفنيد هذه الروايات:

لقد حكم المحققون من العلماء ببطلان هذه القصة سنداً ومتناً، وفسروا الآية تفسيراً صحيحاً يتناسب مع عصمة الأنبياء عليهم السلام[١]؛ إذ هي قصة لا علاقة لها بتلك الآيات الكريمات، لا بدلالة المنطوق، ولا بدلالة المفهوم، ولا يشير إليها سياقها بحال.

(أ) أما تفنيدها من جهة الإسناد:

فقد حكم ببطلان هذه الرواية كثير من المحققين:

قال القاضي عياض في «الشفاء»: «إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ... ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «فيما أحسب - الشك في وصل الحديث - أن النبي ﷺ كان بمكة، وذكر القصة». قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال القاضي عياض: فقد بيَّن لك أبو بكر البزار رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره إلا هذا؛ وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه، الذي لا يوثق به، ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي: فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه» أهـ[٢].

وقال الرازي: «أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة»[٣].

وحكى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضع من الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً[٤].

كما حكى عن البيهقي أيضا قوله: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وأنه قرر أن رواة هذه القصة مطعون فيهم»[٥]. قال أبو حيان في

---

(١) يراجع: التفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ٢٣٦- ٢٤٢، والجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٠- ٨٦، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ٢/ ١٢٤- ١٣٢، والبحر المحيط: ٧/ ٥٢٥، ٥٢٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٣٨٧- ٣٩٠، وروح المعاني للآلوسي: ٩/ ١٦٤- ١٧٨، وفتح القدير: ٣/ ٥٤٥، ٥٤٦، والتحرير والتنوير: ١٧/ ٢٩٧- ٣٠٧.

(٢) الشفاء للقاضي عياض: ٢/١٧٢، ١٧٣ .

(٣) التفسير الكبير: ٢٣/٢٣٧ .

(٤) المصدر السابق: نفس الموضع .

(٥) المصدر السابق: نفس الموضع.

معقباً على كلام البيهقي: «ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه»[١].

وقال الشوكاني: «ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير: «قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم»[٣].

وأما تصحيح الحافظ ابن حجر والسيوطي لهذه القصة واعتمادها[٤]، فقد رد عليه المحققون من العلماء من وجوه، منها:

أولاً: أنها روايات مرسلة، وجمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل، وجعلوه من قسم الضعيف، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة، وعلى الثاني: فلا يؤمن أن يكون كذابا[٥].

قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: «والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار: ليس بحجة»[٦]،

وقال ابن الصلاح في مقدمته: «وذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه: هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث، وتداولوه في تصانيفهم»[٧].

قال الشيخ أبو شهبة: «والاحتجاج بالمرسل مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي بشروط ذكرها في رسالته. وإني لأُذَكِّر الحافظ بما ذكره من البلاء في الاحتجاج بالمراسيل في مقدمة كتابه (لسان الميزان) حيث قال: «روى عن شيخ من الخوارج أنه قال بعدما تاب: إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثا - قال الحافظ: وهذه والله قاصمة الظهر للمحتجين بالمراسيل، إذ بدعة الخوارج كانت في الصدر الأول، والصحابة متوافرون، ثم في عصر التابعين ومن بعدهم، وهؤلاء كانوا إذا استحسنوا أمراً جعلوه حديثا، وأشاعوه، فربما سمعه الرجل السني فحدث به، ولم يظهر من حدث به فيحمله عنه غيره، ويجيء الذي يحتج بالمقاطيع، فيحتج به، ويكون أصله ما ذكرت»[٨]، وهو كلام من الدقة والنفاسة بمكان، وأنا لا أؤاخذ الحافظ ابن

(١) البحر المحيط ٥٢٦/٧.
(٢) فتح القدير ٥٤٦/٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير: ٢٣٩/٣ .
(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٣٥٤/٨، ٣٥٥ .
(٥) نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر: ص٢٧ .
(٦) صحيح مسلم: المقدمة: ٣٠/١ .
(٧) مقدمة ابن الصلاح: ص٣١ .
(٨) لسان الميزان لابن حجر: ١٠/١ .

حجر إلا بما قال[١].

ثانيا: أن الاحتجاج بالمرسل إنما يكون في الفرعيات التي يكفي فيها الظن، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلم، وقد قال علماء التوحيد: إن خبر الواحد لو كان صحيحا لا يؤخذ به في العقائد، لأنه لا يكتفي فيها إلا باليقين، فما بالك بالضعيف!![٢].

(ب) وأما تفنيده من جهة المتن:

فإن هذه الروايات باطلة بالدليل من القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، والعقل السليم.

أما بطلانها بالدليل من القرآن الكريم: فهو أنها مناقصة لكثير من الآيات القرآنية المحكمة، إذ هي مخالفة لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [سورة الحجر: ٤٢] وأي شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء، بله رسول الله؟!، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة النحل: ٩٩] وأي بشر أصدق إيمانا وأقوى توكلا من رسول الله ﷺ؟!، ولقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة ص: ٨٢، ٨٣] ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء، أو من أشد إخلاصا منهم ؟![٣].

كما أنها مخالفة أيضا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، ولقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة يونس: ١٥]، ولقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة النجم: ٣، ٤]، فلو أنه ﷺ قرأ عقيب هذه الآية: «تلك الغرانيق العلى» لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال، وذلك لا يقول مسلم[٤].

وأما بطلانها بالدليل من السنة الصحيحة: فهو أن الذي ورد في صحيح السنة ليس فيه هذا الكذب والاختلاق، لا منطوقا ولا مفهوما.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ)[٥]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ وَالنَّجْمِ،

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة: ص٣١٦ .

(٢) المصدر السابق: نفس الوضع .

(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة: ص٣١٩ .

(٤) التفسير الكبير للرازي: ٤٤/٢٣ .

(٥) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: أبواب سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء: ٤١/٢ ح(١٠٧١).

قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ»، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ)[١].

قال العلامة الشيخ أبو شهبة: «أما سجود المسلمين: فاتباعا لأمر الله تعالى، وأما سجود المشركين: فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة، وعيون الكلم الجوامع، مع التهديد والإنذار، وقد كان العربي يسمع القرآن فيخر له ساجداً»[٢]. أي: سجود انبهار ببلاغته وفصاحته، لا سجود عبادة وإذعان.

وأما بطلانها من حيث العقل: فمن وجوه:

أحدها: أنه قد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن يُنزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر، أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمداً ولا سهواً، أو أن يشبه عليه الملك بما يلقى الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على الله، لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزله عليه[٣].

وثانيها: أن الله تعالى ذم الأصنام في هذه السورة وأنكر على عابديها، فلو أن القصة صحيحة: لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها، ولكان الكلام مفككا متناقضا، وكيف يقع هذا ممن كمل عقله على كل العقول، وكيف يطمئن إلى مثل هذا التناقض مشركوا مكة، وهم أهل اللسن والفصاحة، ومنهم أعداؤه الذين يلتمسون له الزلات والعثرات؟ ولو أن ما روى كان واقعاً لانتهزها المشركون فرصة ولقامت الدنيا، ولارتد الضعفاء من المؤمنين، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، فدل على بطلان هذه القصة من أصلها[٤].

وثالثها: أن من جوَّز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر؛ لأنه من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان[٥].

ورابعها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا أذى المشركين له، حتى كانوا ربما مدّوا أيديهم إليه، وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلا أو

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: أبواب سجود القرآن: باب سجدة النجم: ١٤٢/٦، ح(٤٨٦٣) .
(٢) الإسرائيليات والموضوعات: ص٣١٦، ٣١٧ .
(٣) الشفاء للقاضي عياض: ١٧٤/٢ .
(٤) المصدر السابق: ١٧٥/٢ .
(٥) التفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ٢٣٧ وما بعدها.

في أوقات خلوة؛ وذلك يُبطل قولهم[١].

وخامسها: قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، وذلك أن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى هذه الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن بالقرآن فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى[٢].

وسادسها: وهو أقوى الوجوه: أنا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه ﷺ، ولجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، وذلك يتناقض مع قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي، وبين الزيادة فيه[٣].

ثالثا: توجيه بعض المفسرين لهذه القصة:

لما كانت هذه القصة قادحة في عصمة النبي ﷺ -وبالتالي عصمة كل الأنبياء؛ لأن لفظ الآية عام-؛ فقد حاول من قَبِلها من المفسرين أن يوجدوا لها توجيها سائغا يصرفها عن القدح في عصمة النبي ﷺ، وقد أطالوا في تقرير ذلك دون جدوى، إذ كان من توجيهاتهم[٤]:

١- أن الشيطان عليه اللعنة تسلط على النبي ﷺ وقال ذلك على لسانه.

وهذا مردود؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢]، ولأنه ليس للشيطان سلطان على المخلصين، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]، ومن أخلص من النبي ﷺ؟!!.

٢- أن النبي ﷺ أصابته سنة من النوم، فسها، فجرى ذلك على لسانه دون أن يدري.

وهذا مردود أيضا؛ لأنه لا يجوز في حق النبي ﷺ أن يسهو في أمور التبليغ.

٣- أن الشيطان ترصد سكوت النبي ﷺ أثناء القراءة ونطق بتلك الكلمات (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) محاكيا صوت النبي ﷺ، فظن من سمعها أنها من القرآن. قال ابن حجر: «وهذا أحسن الوجوه «.

ولكنه مردود أيضا، لأنه يبعد أن يقول ذلك محاكيا النبي ﷺ وهو ساكت ولا يسمعه، ومحال أن يسمعه النبي ﷺ ولا يرد عليه ذلك الباطل.

---

(١) المصدر السابق: ٢٣/ ٢٣٧ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق: نفس الموضع .

(٣) المصدر السابق: نفس الموضع .

(٤) يراجع: جامع البيان للطبري: ١٨/ ٦٦٣ وما بعدها، والكشاف للزمخشري: ٣/ ١٦٤، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٤/ ١٢٩، والتفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ٢٣٧ وما بعدها ، وفتح الباري لابن حجر: ٨/ ٤٣٩، ٤٤٠.

إلى آخر تلك التوجيهات التي لا طائل وراءها؛ لأنها متكلفة، إذ يحاول أصحابها أن يفسروا لفظ الآيات عليها، وهي من تلك القصة بعيدة بُعْدَ المشرقين.

رابعا: التفسير الصحيح لهذه الآية الكريمة:

الواضح الذي لا شك فيه هو أن سياق هذه الآيات الكريمة عام، يتضمن تسلية رسول الله ﷺ بذكر حال من كان قبله من الأنبياء والمرسلين في منازعة الشيطان لهم في هداية أقوامهم، وليس في الآيات إشارة إلى رسول الله ﷺ ولا إلى القرآن الكريم، لا منطوقا ولا مفهوما؛ والدليل على ذلك أمور، منها: قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من قبل النبي ﷺ، ومنها: ورود لفظي: ﴿رَّسُولٍ﴾، و﴿نَبِيٍّ﴾ بالتنكير في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تعم، ومنها: زيادة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ لتأكيد هذا العموم.

قال أبو حيان في: «و﴿مِن﴾ في ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ زائدة تفيد استغراق الجنس»[1]؛ أي: تفيد العموم، وقال الطاهر بن عاشور: «فقوله: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ نص في العموم، فأفاد أن ذلك لم يَعْدُ أحدا من الأنبياء والرسل»[2].

وبناء عليه: فليست الآيات في نبينا محمد ﷺ ولا في القرآن الكريم، كما أفادت تلك الروايات.

وبناء عليه: ذكر المحققون من المفسرين وجوها صحيحة تحمل عليها هذه الآيات الكريمة، لكنها جميعا لا تخلو من الاعتراض[3]، وأولى منها ما ذكره الشيخ محمد عبده -رحمه الله -، في تفسيرها؛ فإنه يتفق مع ألفاظها وما تدل عليه عباراتها، وينتظم مع سياقها، ويتفق مع عصمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

قال رحمه الله تعالى: «لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية، وقرأ شيئاً من القرآن أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] الآيات، يحكى قدراً قُدِّر للمرسلين كافة، لا يعدونه ولا يقفون دونه، ويصف شنشنة عرفت فيهم، وفي أممهم؛ فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى: أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط في الوحي المنزل إليهم، ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته ... إلخ، وهذا من أقبح ما يتصوره متصور

(١) البحر المحيط: ٧/ ٥٢٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٩٧.

(٣) يراجع ما ذكره القاضي عياض في «الشفا»: ٢/١٧٧-١٨١، والرازي في التفسير الكبير: ٢٣/٤٥-٤٨، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٩/٢٨٢، ٢٨٣، وغيرهم، مع ما ذكره القاسمي في محاسن التأويل: ٥/٢٠٧، وأبو شهبة في الإسرائيليات والموضوعات: ص٣١٩.

في اختصاص الله تعالى لأنبيائه واختيارهم من خاصة أوليائه!!» .

ثم فسر الشيخ الآيات تفسيرا يتفق مع ألفاظها وسياقها، بعيدا عن تلك الروايات الدخيلة فقال:

«ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم، وذلك بعد أن قال: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الحج: ٤٢] إلى آخر الآيات، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الحج: ٤٩- ٥٢] إلخ، فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم، ثم تبعه الأمر الإلهي بأن يقول النبي ﷺ لقومه: إنني لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه، ولأبشر المؤمنين بالنعيم. وأما الذين يسعون في الآيات والأدلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة؛ ليحولوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لأجله، ويعاجزوا بذلك النبي ﷺ والمؤمنين، أي: يسابقوهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك؛ وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها، كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة - هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم. وأعقب الله تعالى ذلك بما يفيد أن ما ابتُلي به النبي ﷺ من المعاجزة في الآيات قد ابتلى به الأنبياء السابقون، فلم يبعث نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف، ويضادون أمانيه، ويحولون بينه وبين ما يبتغى بما يلقون في سبيله من العثرات. فعلى هذا المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعا، يجب أن تفسر الآية.

وذلك يكون على وجهين:

الأول: أن يكون ﴿ تَمَنَّىٰ ﴾ بمعنى قرأ[١] و(الأمنية) بمعنى القراءة، وقد ورد استعماله بهذا المعنى في لغة العرب، قال حسان بن ثابت في عثمان رضي الله عنهما:

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أولَّ لَيْلِهِ
وآخِرَه لاقَى حِمَامَ المقاديرِ[٢]

ويكون معنى الإلقاء في قوله تعالى: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ ﴾ بمعنى إلقاء الشبه والأباطيل، وذلك من عمل المعاجزين، الذين دأبهم محاربة الحق، واتباع الشبه، والسعي وراء الريب. ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه.

ويكون معنى الآية: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حَدَّث قومه عن ربه، أو

(١) ورد هذا التفسير في صحيح البخاري تعليقا عن ابن عباس: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج: ١٧٦٧/٤ .

(٢) لسان العرب: ٢٩٥/١٥ مادة (منى) .

تلا وحيا أنزل الله فيه هداية لهم، قام في وجهه مشاغبون يتقولون عليه ما لم يقله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينشرون ذلك بين الناس، ولا يزال الأنبياء يجالدونهم ويجاهدون في سبيل الحق حتى ينتصر، فينسخ الله ما يلقى الشيطان من شبه، ويثبت الحق، وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ليتميز الخبيث من الطيب، فيفتتن ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، ثم يتمحص الحق عند أهله، وهم الذين أوتوا العلم، فيعلمون أنه الحق من ربهم، وتخبت له قلوبهم.

والثاني: أن يكون التمني بمعناه المعروف، وهو تَشَهِّي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما كان ويكون[1].

ويكون معنى الآية عليه: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ليدعو قومه إلى هدى جديد، أو شرع سابق إلا وغاية مقصودة وجل أمانيه أن يؤمن قومه. وقد كان نبينا ﷺ من ذلك في المقام الأعلى والمكان الأسمى، قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾ [سورة الكهف: ٦] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

ويكون المعنى: وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ألقى الشيطان في سبيله العثرات، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس في صدور الناس، فثاروا في وجهه، وجادلوه بالسلاح حينا وبالقول حينا آخر، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها، ونالوا منه وهو قليل الأتباع؛ ظنوا أن الحق في جانبهم، وقد يستدرجهم الله جريا على سنته، يجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا، فينخدع بذلك الذين في قلوبهم شك ونفاق، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات، وينشئ من ضعف أنصار الآيات قوة، ومن ذلهم عزة، وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، قال تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ ﴾ [سورة الحج: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [سورة الرعد: ١٧].

وفي حكاية هذه السنة الإلهية التي أقام عليها الأنبياء والمرسلين تسلية لنبينا ﷺ عما كان يلاقي من قومه، ووعد له بأنه تعالى سيكمل له دينه، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته. هذا هو الحق، وما عدا ذلك فباطل» أ. هـ[2].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٣٦٧/٤ .

(٢) نقلًا عن محاسن التأويل للقاسمي: ٢١١/٥ - ٢١٥.

قلت: الأرجح في رأيي: هو أن يكون (تمنى) و(أمنيته) من التمني بمعنى محبة الشيء، وشدة الرغبة في الحصول عليه، لجريانه على أصل اللغة والمشهور منها، ومناسبته للعموم في هذا السياق، ولأنه أوسع معنى من القول بأن (تمنى) بمعنى (قرأ)، إذ يشمل كل ما يلقيه الشيطان من الأباطيل في كل سبيل تؤدي إلى تحقيق ما يتمناه ذلكم الرسول أو النبي لهداية قومه، وليس مقصورا على ما يلقيه الشيطان في معاني ما يقرأه الرسول أو النبي من الوحي.

وبناء عليه: فإن مفعول ﴿أَلْقَى﴾ محذوف مفهوم من السياق؛ لأن الشيطان لا يلقي لأتباعه إلا الشر والكفر والشبهات والأباطيل؛ كأن يوهمهم أن هذا الرسول أو النبي ساحر أو مجنون، أو أن ما يقوله سحر، وما شابه ذلك من الأباطيل؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ معناه: فيزيل الله تعالى بوحيه الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله تلك الشبهات والأباطيل من قلوب أتباعهم المؤمنين، ويثبتهم على الحق المبين.

ويكون المراد بالآيات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾: المعجزات أو الدلائل التي يؤيد الله تعالى بها رسله وأنبياءه عليهم السلام، تصديقا لهم في رسالتهم. والمعنى: ثم يُظهر الله تعالى معجزاته ودلائل قدرته الدالة على صدق رسله وأنبيائه؛ فتبطل بها شبهات الشياطين.

و﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: أي: والله عليم بكل شؤون خلقه، ومنها ما تلقيه الشياطين من الوساوس والشبهات، حكيم في شأنه كله، يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

ثم بيَّن الله تعالى أن له عز وجل حِكَمًا جليلة في إلقاء الشياطين شبهاتهم في نفوس بعض أتباع الرسل والأنبياء، منها ما ذكره في الآية التالية مباشرة؛ حيث قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾﴾، أي: قَدَّرَ الله تعالى ذلك ليجعل ما يلقيه الشيطان من الشبهات بلاء وعذابا، للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب، والكافرين المعاندين الذين قست قلوبهم.

و﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾: أي: وإن الذين تجاوزوا الحدود بنفاقهم وبكفرهم لفي خلاف شديد للحق، الذي هو دين الله تعالى، بسبب ما هم عليه من النفاق والكفر.

ثم ذكر الله تعالى حكمة أخرى من حِكَمِه عز وجل في إلقاء الشياطين شبهاتهم فقال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾﴾ أي: وقَدَّرَ الله

تعالى ذلك أيضا لكي يعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل والأنبياء -عليهم السلام- هو الحق المبين من ربك، فيزدادوا به إيمانا على إيمانهم، فتخشع له قلوبهم، وتطمئن وتخضع.

و﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ أي: وإن الله تعالى لهاد الذين آمنوا إلى الحق المبين، والطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه؛ بتقوية إيمانهم ويقينهم بربهم، وتنوير بصائرهم؛ فيميزوا بين الحق والباطل، فلا تؤثر فيهم شبهات الشياطين.

وبعد، فإن هذا هو التفسير الأصيل في تفسير هذه الآيات الكريمة، وما ذكر من التفسير مبنيا على تلك الروايات فإنما هو تفسير دخيل لا يصح ذكره بحال من الأحوال.

* * *

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين.

وبعد؛ فقد انتهيت بحمد الله تعالى من هذا البحث: (تنزيه النبيين عن كونهم كانوا غير مؤتمنين، دراسة تفسيرية للآيات (٥٢- ٥٤) من سورة الحج). وتبين من خلاله ما يأتي:

١- أن ما روي في قصة الغرانيق في تفسير الآيات (من ٥٢ إلى ٥٤)، من سورة (الحج)، من أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ وهو يتلو القرآن ما ليس منه؛ غير صحيح، وهي روايات ضعيفة، وتتعارض مع القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدا أو سهوا ما ليس منه، لأن الله تعالى عصمه من ذلك كله.

٢- أن تلك الروايات الضعيفة لا علاقة لها بالنبي ﷺ ولا بالقرآن الكريم، وأن ألفاظ الآيات وسياقها بعيدة بُعْدَ ما بين المشرقين عنها، وأن للآيات تفسيرا صحيحا يدفع كل ذلك.

٣- أنه يجب توجيه ما صح من الروايات في تفسير القرآن وكان موهما خلاف الصواب، متعارضا مع القرآن وصحيح السنة؛ توجيها يدفع ذلك التعارض، ويتفق مع القرآن والسنة.

٤- أنه يجب تفنيد ما روي في التفسير من روايات باطلة، وبيان التفسير الصحيح، حتى لا يغتر أحد بهذا المروي اعتمادا على ذكر أعلام المفسرين له.

وأخيراً .. أوصي المسلمين بضرورة الرجوع إلى أهل العلم لمعرفة التفسير الصحيح من التفسير الدخيل، مهما كانت شهرة التفسير الذي ذكرت فيه تلك المخالفات.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ط/ دار المعرفة - بيروت، بدون تاريخ.

٢) إرشاد الفحول للشوكاني، ط/ دار الكتاب العربي، الأولى ١٩٩٩م

٣) الاستقامة لابن تيمية، ط/ جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٣هـ.

٤) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: لأبي شهبة، ط مكتبة السنة، بالقاهرة.

٥) البحر المحيط لأبي حيان، ط دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٦) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ط دار سحنون للنشر، تونس، بدون تاريخ.

٧) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي، ط/ دار المنهاج للنشر بالرياض.

٨) التفسير البسيط للواحدي، ط/جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٣٠هـ.

٩) تفسير القرآن العظيم: لابن أبى حاتم، ط/ مكتبة نزار الباز بمكة المكرمة.

١٠) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، ط دار المعرفة، بيروت، الأولى، ١٩٨٦م.

١١) التفسير الكبير: للرازي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٩٩٠م.

١٢) جامع البيان للإمام الطبرى، ط دار

الريان للتراث بالقاهرة، ١٩٨٧م.
١٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبى، ط دار الحديث بالقاهرة، ١٩٩٦م.
١٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ط/ دار الفكر، بيروت, ١٩٩٣م.
١٥) دلائل النبوة للبيهقي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٦) الرسالة القشيرية للإمام القشيري، ط/ دار المعارف، القاهرة.
١٧) روح المعاني للإمام الآلوسي، ط/ دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٥م.
١٨) شرح جوهرة التوحيد لعبد السلام اللقاني، ط/ مكتبة صبيح، القاهرة، ١٩٦٥م.
١٩) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض، ط/ دار النشرتي، بالقاهرة، ٢٠٠٦م .
٢٠) الصحاح للجوهري، ط/ دار الفكر، بيروت، الأولى، ١٩٩٨م.
٢١) صحيح البخاري: للإمام البخاري، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ
٢٢) صحيح مسلم: للإمام مسلم، ط/ دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، ط/ دار المعرفة، بيروت.
٢٤) فتح القدير للشوكاني، ط دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٢٥) الكشاف للزمخشري، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع: لمكي بن أبى طالب، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٧) لسان العرب: لابن منظور، ط دار صادر، بيروت.
٢٨) لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، ط/ مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٦م.
٢٩) لوامع الأنوار البهية للسفاريني، ط/ مؤسسة الخافقين، دمشق، ١٩٨٢م.
٣٠) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ط/ مجمع الملك فهد، بالمدينة النبوية، ١٩٩٥م.
٣١) محاسن التأويل: للقاسمي، ط/ مؤسسة التاريخ العربي، بيروت١٩٩٤م.
٣٢) المحرر الوجيز لابن عطية، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٩٩٣م.
٣٣) مسند البزار لأبي بكر البزار، ط/ مكتبة العلوم والحكم، بالمدينة المنورة.
٣٤) معالم التنزيل للبغوي، ط/ دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.
٣٥) المعجم الكبير للطبراني، ط/ مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م .
٣٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط/ دار المعرفة، بيروت.
٣٧) مقدمة ابن الصلاح لابن الصلاح، ط/

دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٨٦م.
٣٨) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ط/ جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٦م.
٣٩) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني، ط/ مطبعة الصباح، دمشق.
٤٠) النكت والعيون للماوردي، ط/ دار الكتب العلمية ، لبنان
٤١) النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، ط/ دار المكتبة العلمية، لبنان.

* * *